من اوراقي

كيف كانت المراة البغدادية تتجمل ؟

صـــــــادق الازدي

بغداد الحديثة ذات الدور والقصور والحدائق والمغاني وما بقي فيها من الاحياء البغدادية القديمة لم تعد تعرف ذلك الذي عرفناه والذي الفناه في بغداد حتى الثلاثينيات فقد كان من المعتاد ان تمر امراة متقدمة بالعمر وهي تنادي بصوتها الضعيف ديرم، حمرة، سبداج قلاي . وبعد قليل تمر اخرى وتحمل طبقا على راسها وتنادي جيرة يابنات جيرة .. فما هي البضاعة التي تبيعها كلا منهما ..
مواد تجميل نسائية ؟.
المرأتان تبيعان بعض مواد التجميل التي تشتريها النساء فالمراة منذ ان خلقها الله تحب ان تكون جميلة حتى مع معرفتها بالحكمة التي قالها الشاعر قديما (تلك هي .. لايصلح العطار ما أفسده الدهر) ذلك لان التطرية والتزيين يلعبان دورا بارزا في اخفاء ماتتركه الأيم من اثار على وجه الانسان ومن هنا نشات تجارة قديمة مادتها مستقاة من الشجر والحجر ومواد طبيعية اخرى تشتريها النساء لتكون وجوههن اجمل وانظر وقد تطورت تلك التجارة في هذه الايام فصارت تجارة عالمية ومع ان مصانع المساحيق والمعاجين والاصباغ تقدم اليوم الكثير من الانواع في العلب الجذابة الا اننا نستطيع القول بان مواد التجميل القديمة اقل ضررا بالوجه والشعر. مما شاع استعماله عندنا منذ نصف قرن لان مواد ايام زمان كانت طبيعية .. بينما تلعب المواد الكيمياوية دورا رئيسيا في انتاج معظم ما تتزين به المراة اليوم ..
سوق مواد التجميل ..
ومع أن سوق الشورجة في بغداد قد اشتهر بانه اكبر اسواق العطارين الا انه كان كذلك السوق الذي تباع فيه مواد التجميل النسائية فان العطار كان يبيع ايضا الحمرة والديرم والسبداج والقلاي والكحل والاقراص واقلام السبداج والحناء ..
وفي السوق ذاته كانت تباع الامشاط الخشبية وليفة الحمام والجيس والحجر وكانت تنتشر فيه بائعات المواد التجميلية اللواتي يفترشن ارضه وكلهن من المتقدمات في السن .. وكذلك التي تتجول في الدروب عارضة بضاعتها على البغداديات .

وبين الزميل المقدادي ،انه عاش في (فرنسا)لفترة اكثر من (١٥)سنة مضت كان يواصل دراسته العليا فيها لنيل شهادة (الدكتوراه)وكان يلاحظ كيف ان الفرنسيين (حكومة وشعبا)يحيون اسماء اعلامهم من السياسيين والشعراء والادباء والفنانيين والموسيقيين والعلماء ،ويطلقون اسمائهم على شوارعهم وساحاتهم وحدائقهم ..

من أين ياتون بها ؟.
قلنا ان مواد التجميل كانت كلها طبيعية غير مصنوعة او دخلت الى بعضها المصنعة غير المعقدة ففي الديرم الذي كان يكسب الشفة اللون الاحمر الغامق جوزي اللون ويعلق بها ثلاثة او اربعة ايام يحصلون عليه من لحاء الشجر في شمال القطر .. اما السبداج القلاي فاشهر انواعه ذلك الذي كان يصنع في كركوك وهو مادة صخرية تحترق ثم تسحق جيدا وتخلط بقشور البيض وغيرها . ويطلا بها الوجه فيضفي عليه اشراقة البياض الهادىء.
اما الكحل فانهم يصنعونه من الحجر الاسود وكانوا يتركونه في الماء ثلاثة اسابيع ثم يسحق بواسطة الهاون وينخل بمنخل ناعم ويوضع المسحوق في المكحلة وهي اناء معدني صغير يتعلق بسدادته قبغ مسمار مدبب النهاية اسمه الميل . الذي يصير وضعه بين جفني العين ثم سحبه الى الجانب فيعلق الكحل في العين الذي طخ به الرموش وبعد ان تنتهي المراة من وضع السبداج والكحل تقوم بتخطيط حاجبيها اللذين يكونان قد زججا أي تمت تسويتهما .. اما من قبل الحفافة او بواسطة المنكاش . ويكون الخطاط بكسر الخاء بواسطة قلم السداب ويضع من صخام القدور والمواقد يوم كان الطبخ يتم بنار الخشب ويخلط السخام بالشحوم الحيوانية ويصنع منه مايشبه بالقلم بطول الاصبع وتقوم المراة باضفاء اللون الاحمر الفاتح على خديها بواسطة الحمرة التي تكون موجودة في قطع القطن صبغت بمادة الكبلي وهو ما كانت تعالج به العيون المصابة بالرمد ويكون على شكل مسحوق ناعم .. وكانت الحناء من مواد التجميل الكثيرة الاستعمال . وهي مسحوق من اصل نباتي يخلط بالماء ثم يلطخ به الشعر لاخفاء الشيب البكر واكساب الشعر الحمرة وتضاف الوسمة الى الحناء ليكون الشعر اسود اللون كما كانت الحناء تقوم مقام صبغ الاظافر في ايامنا هذه وكانت لليلة الحنة مكانتها في الاعراس فتخضب العروس وصويحباتها وقريباتها كفوفهن بها ويجري لفها بقطع القماش ولاتفتح الا في الصباح التالي اما العرسان من الرجال فكانوا يكتفون بوضع الحناء على اصبعين من اصابع اليد اليمنى وهما الخنصر والبنصر ..
وقد يسأل القارئ ما هي الجيرة والاقراص؟.
فنقول ان الجيرة هي قطع من مادة القار غير السائلة تكون مستديرة وبحجم العملة المعدنية فئة المئة فلس وبسمك لايزيد عن نصف سنتمتر وتستعمل لازالة الشعر من الاذرع والارجل .. اما الاقراص والواحدة منها اسمها الدارج كرضة فهي مادة صخرية تسحق وتحول الى قطع صغيرة بحجم الدرهم وبسمك مناسب وتستعمل كمساج للوجه من اجل ازالة القشرة الميتة ذلك لان الصابون كان من مواد الترف وحتى قبل الغسل للشعر والوجه كانت المراة البغدادية تغسل اولا بالطين خاوة وهي مادة اشبه بالرملية سريعة الذوبان بالماء .
الجديد والقديم ..
واليوم قد دالت دولة مواد التجميل الطبيعية القديمة وحلت محلها مواد التطرية والتزيين الجديدة ويحق لنا نصح سيداتنا بعدم الاكثار من استعمال المواد التجميلية الحديثة وازالتها عن وجوههن قبل النوم وان كنا بطبيعة الحال لاننصحهن بالعودة الى الديرم وسبداج القلاي والتعطر بعطر الورد لان الجديد وحتى ان كان بغير نقاء القديم الا ان مسايرة الحداثة هو الافضل.

الطب والجراحة أيام زمان

كبد الاطفال لعلاج السرطان وعلاج (التراخوما) يبيعه اليهود

عرفَ البغداديون الطبيب المسمى (ابو الفينة) لانه كان يلبس الطربوش وهو ايراني الجنسية كما عرفنا الدكتور نظام الدين وميرزه يعقوب. وبدأ الناس يعبرون الى جانب الرصافة لمراجعة الاطباء واشهرهم الدكتور خظفر البكتاشي وكان محله في الدنكجية (شارع المأمون) والدكتور الحجي كاني. ولم تكن كلمة الجراح تستعمل بل يقال (اوبراتور) اي الذي يعمل العمليات والدكتور عبدالرحمن المفيد طبيب العيون الاسطة ناصر للاسنان والدكتور سامي سليمان صاحب اللوحة المشهورة (سامي سليمان طبيب العيون والابدان وعيادته جوار الصيدلية الاسلامية في شارع المأمون وفي محلة الهيتاويين وقرب العباخانة دكتوران هما داود نسيم والدكتور الايراني ارسطو وكان يداوي بالحشائش والاعشاب التي يستوردها من ايران او يشتريها من سوق العطارين او من المزارع الصغيرة حول بغداد ثم يخلطها ويطبخها بالقدور ويعالج بها المرضى.

سعيد الهزاز

اما الاطباء الانكليز فكانوا الدكتور (ودمان ودنلوب وسندرسن وهيكرز) في المستشفى الملكي المسمى خستخانة (المجيدية) دار التمريض المسمى (نرسيك هوم) وتديره بسيطرة بالغه المس كينكستن وكانت اجرة الليلة الواحدة في النرسيك هوم عشر ربيات عدا اجور الاطباء.
ثم توالى وصول الاطباء العراقيين وعرفناهم وصرنا نراجعهم لبعض أمراضنا او لزرق الابر ضد الملاريا منهم الدكتور هاشم الوتري وعبدالهادي الباججي وتوفيق رشدي وصائب شوكت واسماعيل الصفار وجوبانيان وجلال العزاوي وغيرهم . اما الدكتور حنا خياط الذي صار وزيرا للصحة والدكتور داود الجلبي فقد انصرفا الى الادب والتاليف اكثر من انصرافهما للطب وحين تفشى مرض الطاعون، وزع الجيش البريطاني مصائد الجرذان على البيوت واجبر الكل بالذهاب الى بيت المختار للتلقيح اما الذين اصيبوا بالمرض او المجذومون فقد اخذوا الى مستشفى العزل في الكرخ. وكانت هناك امرأة اسمها (رخيته) تسكن في الجادرية وتشتهر بخلط الاعشاب والمداواة بها مثل البابونج وورد لسان الثور وعنب الثعلب والخوبيا وبذور الكتان والسنامكي وغيرها من ادوية الاعشاب. اما الجراحات البسيطة فيداويها الحلاقون ومن اهم مراهم الجروح ما يسمى (مرهم بومباي) وهناك امراة مسيحية لها خبرة في التمريض والمداواة اسمها ام سلمان وهي ام الممرضة المعروفة مركريت الممرضة عند صائب شوكت. اما (الكي) وهو اخر الدواء ومن اشهرهم محمد الوني العكيلي. اما الحجامة فيقوم بها الحلاقون او بعض النساء الماهرات في مص الدم من رقبة الشخص بواسطة الكأس من خلف الرقبة. اما التمائم والتعاويذ وطب الملالي فهو منتشر والاعتقاد فيه قوي عند الناس واشتهر من الملالي ابن الملا جواد وابن شيخ كمر الذي سيق الى المحكمة في سنة ١٩٢٩ لتسببه في موت التلميذ بالثانوية المركزية صبري درويش اما ختان الاولاد فهو من اختصاص الزعرتية وهم من منطقة (سعرت) على الحدود العراقية التركية وهم معرفون بالبستهم الخاصة وحقيبتهم اليدوية وكان اليهود يزاحمون الزعرتية في ختان الاولاد لانهم اكثر مهارة منهم وكانوا يعتقدون ان كبد الاطفال وقلوبهم هي الدواء (للآجله) السرطان والامهات خصوصا يخفن من الخناق الذي يخنق الاطفال. اما الكسور فانها تعالج عند (المجبرجي) واشهرهم في بغداد هو الاسطة محمد الصفار ودكانه وسط سوق الصفافير والحاج خليل الكردي في محلة الصدرية ودكانه في وسط السوق. اما طب النساء فالقابلات يقمن بالواجب واذا استعصى الامر وعسرت الولادة فان المؤذنين يصعدون الى المنابر ويهتفون (ياقريب الفرج ياعالي بدون درج عبدتك بشدة وتطلب منك الفرج) الى ان تلد او تموت. وكان البشتمال الاحمر علاجا لمرض الحصبة مع التجوال بالمصاب في الازقة والدرابين. ومرض التراخوما والحبة في الجفون يقال لها (حدكدكه) فدواؤها ان تباع الى يهودي سواء كان متجولا ام صائغا في سوق الصاغة.

اســـــواق المـــــوصل .. تـــــاريخ وعـــــراقـــــة

منها –أي الموصل –يقصد الى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الى اذربيجان وكثيرا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاث نيسابور لانها الباب الشرقي ودمشق لانها الباب الغربي والموصل لانها القاصد الى الجهتين قل مالايمر منها .. ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان)

يصف الرحالة الاندلسي ابن جبير الربض الاسفل في المدينة اثناء زيارته لها سنة ٥٨٠ (١١٨٤م) فيقول : وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ويأخذه العجب من اسواقها وما تحويه فيصفها وصفا شيقا بقوله: وبني ايضا –يقصد مجاهد الدين قيماز صاحب الموصل انذاك –داخل البلد وفي سوقه قيسارية للتجار كانها الخان العظيم تنغلق عليها ابواب من حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت . بعضها على بعض قد جلى كله في اعظم صورة من البناء المخزف الذي لامثيل له فيما راى في البلاد قيسارية تعدلها . واذا استعرضنا نشأة وتطور اسواقها التجارية منذ ان فتحها العرب بقيادة ربعي بن الافكل سنة ١٦ هجري ٦٣٧ ميلادية حتى يومنا هذا وجدنا انها قد مرت بادوار مختلفة وانها على وجه العموم قد انتشرت في المراكز الحيوية للمدينة كما اختص البعض منها بنوع معين من البضاعة والبعض الاخر لايزال قائما في المكان الذي نشا فيه محتفظا بالاسم الذي اطلق عليه للمرة الاولى وهذا مايضفي على المدينة مسحة تاريخية . وكمثل على هذه الاسواق التي لازالت تحتفظ باسمائها (سوق الشعارين) فقد ذكر هذا الاسم منذ القرن الاول الهجري ويقع الى الجنوب من دار الامارة المجاور للجامع الاموي انذاك جامع المصفى في الوقت الحاضر وكان يباع في هذا السوق مايحتاجه الجيش من حبال وخيام وهو يمتد في الوقت الحاضر من جامع النبي جرجيس الى التقاء هذا الشارع مع شارع نينوى . ومن الاسواق القديمة التي بقيت محتفظة بأسمائها الى وقت يقل عن ربع قرن مضى (جهار سوك) او(شهر سوق) وهو من الاسواق الكبيرة والمهمة داخل المدينة وقد ذكر هذا الاسم منذ القرن الرابع الهجري ولما فتح شارع الفاروق في قسمه المحصور بين منطقة الساعة وباب الجديد واستكملت بلدية الموصل عددا من دكاكينه ودخلت مساحاتها في الشارع المذكور وفي سنة ١٩٥٤ استكملت البلدية ماتبقى منها وانشات حديقة صغيرة على هذا الشارع ومازالت المحلة تحمل اسم السوق الذي كان يقع فيها يومذاك .
وكمثل على هذه الاسواق القديمة التي لازالت تحتفظ باسمائها القديمة الى يومنا هذا سوق(السرج خانة) او (السراج خانة) فقد عرف بهذا الاسم منذ العهد المغولي وكان يباع فيه السروج التي تحتاجها الخيول وهو الى يومنا هذا من الاسواق الكبيرة المختصة ببيع الاقمشة المختلفة والكماليات المتنوعة واغلب رواده من النساء ولازالت المحلة تحمل اسم السوق الذي يقع فيها . ولقد وصلتنا اسماء اسواق قديمة اخرى وعرفنا مواقع البعض منها الا ان الزمن عفي عليها ولم يعد لها ذكر في عصرنا هذا . ومن الاسواق سوق القتابين لبيع قتب الابل وسوق السراجين وسوق الاربعاء (كان يعقد في كل يوم اربعاء من كل اسبوع) وسوق التركمان هذا بالاضافة الى عدد من الاسواق والقيسريات المشهورة وما كان يحوي كل منها من دكاكين كثيرة .
والاسواق شأنها شأن بقية مرافق المدينة التي تختص بها فهي تستمد حيويتها من حيوية المدينة ولقد مرت على الموصل عهود مظلمة قاسية انكمشت فيها صناعاتها وتعطلت تجارتها واجدبت اراضيها الزراعية فاقفلت الاسواق ابوابها ولعل احرج هذه العود واطولها عمرا هي تلك التي اعقبت سقوط بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية ١٢٥٨ ميلادية . على ان ما نشاهده في الموصل في الوقت الحاضر من اسواق قديمة يمكن ارجاع مبدا إعادة نشاة وتطور عدد منها الى مايقارب من اربعة قرون مضت وقد توزعت هذه الاسواق في اماكن متعددة من المدينة وانحصر عدد منها في منطقة معينة فكون سوقا كبيرا اطلق عليه اسم السوق الكبير لوقوعه امام سراي الحكومة في العهد العثماني فقد اطلق عليه اسم (سوق باب السراي) وهي التسمية التي ترجع الى ما قبل الحرب العالمية الاولى ويعتبر هذا السوق من اكبر واشهر اسواق الموصل في الوقت الحاضر ويقع موقعه وسط المدينة بالتحديد..